الباطنية (*)

﴿ وآخر فرقهم البابية البهائية ﴾

وقد اختلف المتكلمون في بيان اغراض الباطنية في دعوتها الى بدعتها فذهب اكثرهم الى ان غرض الباطنية الدعوة الى دين المجوس بالتأويلات التي يتأولون عليها القرآن والسنة واستدلوا على ذلك بأن زعيمهم الاول ميمون بن ديصان كان مجوسيا من سبي الاهواز . ودعا ابنه عبد الله بن ميمون الناس الى دين أبيه واستدلوا أيضا بأن داعيهم المعروف بالبزدهي قال في كتابه المعروف بالمحصول ان المبدع الاول أبدع النفس . ثم ان الاول مدبر العالم بتدبير الكواكب السبعة والطبائع الاربع وهذا في التحقيق معنى قول المجوس ان أيزدان خلق اهرمن وانه مع اهرمن مدبران للعالم غير ان أيزدان فاعل الخيرات وأهرمن فاعل الشرور . ومنهم من نسب الباطنية الى الصابئين الذين هم بحران واستدل على ذلك بأن حمدان قرمط داعية الباطنية بعد ميمون بن ديصان كان من الصابئة الحرانية واستدل أيضا بأن صابئة حران يكتمون أديانهم ولا يظهرونها الا لمن كان منهم . والباطنية أيضا لا يظهرون دينهم الا لمن كان منهم بعد احلافهم اياه على أن لا يذكر اسرارهم لغيرهم .

قال عبد القاهر : الذي يصح عندي من دين الباطنية انهم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم وينكرون الرسل والشرائع كلها ميلها الى استباحة كل ما يميل اليه الطبع . والدليل على انهم كما ذكرناه ما قرأته في كتابهم المترجم بالسياسة والبلاغ الاكيد والناموس الاعظم وهي رسالة عبد الله بن الحسن القيرواني الى سليمان بن الحسن بن سعيد الجنابي أوصاه فيها بأن قال له : ادع الناس بأن تتقرب اليهم بما يميلون

(*) تتمة لما نشر في الجزء السابق (ص ٨٤٠) نقلا من كتاب الفرق بين الفرق

اليه وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم فمن انست منه رشدا فاكشف له الغطاء واذا ظفرت بالفلسفي فاحتفظ به فعلى الفلاسفة معولنا واياهم مجمعون على ان نواميس الأنبياء (كذا) وعلى القول بقدم العالم لو ما يخالفنا فيه بعضهم من ان للعالم مدبرا لا يعرفه . وذكر في هذا الكتاب القول بالمبدا والمعاد والعقاب وذكر فيه أن الجنة نعيم الدنيا وان العذاب انما هو اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والصيام والحج والجهاد وقال أيضا في هذه الرسالة : ان أهل الشرائع يعبدون إلها لا يعرفونه ولا يعقلون منه إلا على اسم بلا جسم . وقال فيها أيضا : اكرم الدهرية فانهم منا ونحن منهم . وفي هذا تحقيق نسبة الباطنية الى الدهرية

والذي يؤكد هذا ان المجوس يدعون نبوة زرادشت ونزول الوحي عليه من عند الله تعالى والصابئين يدعون نبوة هرمس وواليس ودور وتيوس وافلاطون وجماعة من الفلاسفة : وسائر أصحاب الشرائع كل صنف منهم مقرون بنزول الوحي من السماء على الذين أقروا بنبوتهم ويقولون ان ذلك الوحي شامل للامر والنهي واخبر من عاقبة الموت وعن ثواب وعقاب وجنة ونار يكون فيهما الجزاء عن الأعمال السالفة : والباطنية يرفضون المعجزات وينكرون نزول الملائكة من السماء بالوحي والامر بالنهي بل ينكرون أن يكون في السماء ملك وانما يتأولون الملائكة من دعاتهم الى بدعتهم ويتأولون الشياطين على مخالفيهم والابالسة على مخالفيهم . ويزعمون أن الأنبياء قوم أحبوا الزعامة فساسوا العامة بالنواميس والحيل طلبا للزعامة بدعوى النبوة والامامة . وكل واحد منهم صاحب دور مسبع اذا انقضى دوره سبعة تبعه في دور آخر واذا ذكروا النبي والوحي قالوا النبي هو الناطق والوحي أساسه الفاتق والى الفاتق تأويل نطق الناطق على ما نراه يميل اليه هواه فمن صار تأويله الباطن فهو من الملائكة المدبرة ، ومن عمل بالظاهر فهو من الشياطين الكفرة ، ثم تأولوا لكل ركن من أركان الشريعة تأويلا يورث تضليلا فزعموا ان معنى الصلاة موالاة امامهم والحج زيارته وادمان خدمته . والمراد بالصوم الامساك عن افشاء سر الامام دون الامساك عن الطعام ، والزنا عندهم افشاء سرهم بغير عهد وميثاق . وزعموا أن من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها وتأولوا في ذلك

قوله تعالى «واعبد ربك حتى يأتيك اليقين» وحملوا اليقين على معرفة التأويل. وقد قال القيرواني في رسالته الى سليمان بن الحسن: اني أوصيك بتشكيك الناس في القرآن والتوراة والزبور والانجيل وبدعوتهم الى إبطال الشرائع والى إبطال المعاد والنشور من القبور وإبطال الملائكة في السماء وإبطال الجن في الارض وأوصيك بأن تدعوهم الى القول بأنه قد كان قبل آدم بشر كثير فان ذلك عون لك على القول بقدم العالم

وفي هذا تحقيق دعوانا على الباطنية انهم دهرية يقولون بقدم العالم ويجحدون الصانع. ويدل على دعوانا عليهم بالقول بابطال الشرائع وأن القيرواني قال ايضا في رسالته الى سليمان بن الحسن: وينبغي أن تحيط علما بمخاريق الانبياء ومناقضاتهم في قولهم كعيسى بن مريم قال لليهود: لا أرفع شريعة موسى ثم رفعها بتحريم الاحد بدلا من السبت وأباح العمل في السبت وأبدل قبلة موسى بخلاف جهتها ولهذا قتلته البلاد لما اختلفت كلمته. ثم قال له: ولا تكن كصاحب الامة المنكوسة حين سألوه عن الروح فقال: «الروح من أمر ربي» (١) لما لم يحضره جواب المسألة. ولا تكن كموسى في دعواه التي لم يكن له عليها برهان سوى المخرقة بحسن الحيلة والشعبذة ولما لم يجد المحق في زمانه عنده برهانا قال له: «لئن اتخذت إلها غيري». وقال لقومه: «أنا ربكم الاعلى» لانه كان صاحب الزمان في وقته. ثم قال في آخر رسالته:

وما العجب من شيء كالعجب من رجل يدعي العقل ثم يكون له أخت أو بنت حسناء وليست له زوجة في حسنها فيحرمها على نفسه وينكحها من اجنبي. ولو عقل الجاهل لعلم انه أحق باخته وبنته من الاجنبي ما وجه ذلك الا أن صاحبهم حرم عليهم الطيبات وخوفهم بنائب لا يعقل وهو الاله الذي يزعمونه وأخبرهم بكون ما لا يرونه أبدا من البعث من القبور والحساب والجنة والنار حتى استعبدهم بذلك عاجلا وجعلهم له في حياته ولذريته بعد وفاته خولا واستباح بذلك أموالهم بقوله «لا أسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى» (٢) فكان أمره معهم

(١) الروح هنا ملك ذكر في القرآن أو الوحي ولا يمكن الجواب عنه بغير هذا

(٢) مطالبتهم بالمودة في القربى أي الاقربين من أولي ارحامه (ص) لا يقضي جعلهم عبيداً وخولا لهم فكيف والظاهر انه اراد اتاربهم وارحامهم والاستثناء منقطع قطعاً

قد وأمرهم معه نسيئة . وقد استعجل منهم بذل أرواحهم وأموالهم على انتظار موعود لا يكون . وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها ؟ وهل النار وعذابها الا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلاة والصيام والجهاد والحج ؟ ثم قال لسليمان بن الحسن في هذه الرسالة : وأنت واخوانك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس وفي هذه الدنيا وتنعم نعيمها ولذاتها المحرمة على الجاهلين المتمسكين بشرائع أصحاب النواميس فهنيئا لكم مانلتم من الراحة عن أمرهم . وفي هذا الذي ذكرناه دلالة على أن غرض الباطنية القول بمذاهب الدهرية واستباحة المحرمات وترك العبادات

ثم أن الباطنية لهم في اصطياد الاغنام ودعوتهم الى بدعتهم حيل على مراتب يسمونها التفرس والتأنيس والتشكيك والتعليق والربط والتدليس والتأسيس والمواثيق بالايمان والعهود وآخرها الخلع والسلخ . فأما التفرس فانهم قالوا : من شرط الداعي الى بدعتهم أن يكون قويا على التلبيس وعارفا بوجوه تأويل الظواهر ليردها الى الباطن ويكون مع ذلك ممزا بين من يجوز أن يطمع فيه وفي اغوائه وبين من لا مطمع فيه . ولهذا قالوا في وصاياهم للدعاة الى بدعتهم لا تتكلموا في بيت فيه سراج يعنون بالسراج من يعرف علم الكلام ووجوه النظر والمقاييس . وقالوا أيضا لدعاتهم : لا تطرحوا بزركم في أرض سبخة : وأرادوا بذلك منع دعاتهم عن اظهار بدعتهم عند من لا تؤثر فيهم بدعتهم كما لا يؤثر البذر في الارض السبخة شيئا . وسموا قلوب أتباعهم الاغنام أرضا زاكية لانها تقبل بدعتهم . وهذا المثل بالعكس أولى وذلك أن القلوب الزاكية هي القابلة للدين القويم والصراط المستقيم وهي التي لا تصدأ بشبه أهل الضلال كالذهب الابريز الذي لا يصدأ في الماء ولا يبلى في التراب ولا ينقص في النار . والارض السبخة كقلوب الباطنية وسائر الزنادقة الذين لا يزجرهم عقل ، ولا يردعهم شرع ، فهم أرجاس أنجاس « أموات غير أحياء » « ان هم كالانعام بل هم أضل سبيلا » وأقل حويلا قد قسم لهم الحظ من الرزق من قسم رزق الخنازير في مراعيها ، وأباح طعمة العنب في بواديها ، « لا يسئل عما يفعل وهم يسألون »

وقالوا أيضا: من شرط الداعي إلى مذهبهم أن يكون عارفا بالوجوه التي تدعى الانصاف ،

فليست دعوة الانصاف من وجه واحد بل لكل صنف من الناس وجه يدعى منه الى مذهب الباطن . فمن رآه الداعي مائلا الى العبادات حمله على الزهد والعبادة ثم سأله عن معاني العبادات وعلل الفرائض وشككه فيها . ومن رآه ذا مجون وخلاعة قال له : العبادة بله وحماقة وان الفطنة في نيل اللذات وغثل له بقول الشاعر

من راقب الناس مات هما وفاز باللذة الجسور

ومن رآه شاكا في دينه أو في المعاد والثواب والعقاب صرح له بنفي ذلك وحمله على استباحة المحرمات واستروح معه الى قول الشاعر الماجن

أأترك لذة الصهباء صرفا لما وعدوه من لبن وخمر
حياة ثم موت ثم نشر حديث خرافة يا أم عمرو

ومن رآه من غلاة الرافضة كالسبائية واليانية والمغيرية والمنصورية والخطابية لم يحتج معه الى تأويل الآيات والاخبار لانهم يتأولونها معهم على وفق ضلالتهم . ومن رآه من الرافضة زيديا أو إماميا مائلا الى الطعن في أخبار الصحابة دخل عليه من جهة شتم الصحابة وزين له بغض بني تيم لان أبا بكر منهم وبغض بني عدي لان عمر بن الخطاب كان منهم وحثه على بغض بني امية لانه كان منهم عثمان ومعاوية وربما استروح الباطني في عصرنا هذا الى قول اسماعيل بن عباد

دخول النار في حب الوصي وفي تفضيل أولاد النبي
أحب الي من جنات عدن أخلدها بتيم أو عدي

قال عبد القاهر قد أجبنا هذا القائل بقولنا فيه :

اتطمع في دخول جنان عدن وأنت عدو تيم أو عدي
وهم تركوك أشقى من ثمود وكم تركوك أفضح من دعي
وفي نار الجحيم غدا ستصلى اذا عاداك صديق النبي

ومن رآه الداعي مائلا الى أبي بكر وعمر مدحهما عنده وقال لها حظ في تأويل الشريعة ولهذا استصحب النبي أبا بكر الى الغار ثم الى المدينة وأفضى اليه في الغار تأويل شريعته . فاذا سأله الموالي لابي بكر وعمر عن التأويل المذكور لابي بكر وعمر أخذ عليه العهود والمواثيق في كتمان ما يظهره له . ثم ذكر له على التدريج بعض

التأويلات فان قبلها منه اظهر له الباقي وان لم يقبل منه التأويل الاول ربطه في الباقي وكتمه عنه وشك الغر من أجل ذلك في أركان الشريعة .

والمدعي بروج مذهب الباطنية أصناف . أحدها العامة الذين قلت بصائرهم بأصول العلم والنظر كالنبط والاكراد وأولاد المجوس . والصنف الثاني الشعوبية الذين يرون تفضيل العجم على العرب ويتمنون عود الملك الى العجم . والصنف الثالث اعظام بني ربيعة من أجل غضبهم على مضر لخروج النبي منهم . ولهذا قال عبد الله بن حازم السلمي في خطبته بخراسان : ان ربيعة لم تزل غضابا على الله منذ بعث نبيه من مضر . ومن أجل حسد ربيعة لمضر بايعت بنو حنيفة مسيلمة الكذاب طمعا في أن يكون في بني ربيعة نبي كما كان من بني مضر . فاذا استأنس الاعجمي الغر أو الربعي الحاسد المعلن بقول الباطني قومك أحق بالملك من مضر سأله عن الندب في عود الملك الى قومه فاذا سأله عن ذلك قال له ان الشريعة المضرية لما نهاية وقد دنا انقضاؤها وبعد انقضائها يعود الملك اليكم . ثم ذكر له تأويل إنكار شريعة الاسلام على التدريج . فاذا قبل منه ذلك صار ملحدا خرسا واستقل العبادات واستطاب استحلال المحرمات . فهذا بيان الغرض منهم

ودرجة (التأنيس) قريبة من درجة الغرض عندهم وهي تزيين ما عليه الانسان من مذهبه في عينه ثم سؤاله بعد ذلك عن تأويل ما هو عليه وتشكيكه إياه في أصول دينه فاذا سأله المدعو عن ذلك قال : علم ذلك عند الامام ووصل بذلك منه الى درجة التشكيك حتى صار المدعو الى اعتقاده ان المراد بالظواهر والسنن غير مقتضاها في اللغة وهان عليه بذلك ارتكاب المحظورات وترك العبادات

(والربط) عندهم تعليق نفس المدعو بطلب تأويل أركان الشريعة . فاما ان يقبل منهم تأويلها على وجه يؤول الى رفعها وإما أن يبقى على الشك والحيرة فيها .

ودرجة (التدليس) منهم قولهم للغر الجاهل بأصول النظر والاستدلال : ان الظواهر عذاب وباطنها فيه الرحمة وذكر له قوله في القرآن (فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) فاذا سألهم الغر عن تأويل باطن الباب قالوا : جرت سنة الله تعالى في أخذ العهد والميثاق على رسله . ولذلك قال « وإذ أخذنا من النبيين

ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا » وذكر له قوله « ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا » فاذا حلف الفرلهم بالايمان المغلظة و بالطلاق والعتق و بسبيل الاموال فقد ربطوه بها وذكروا له من تأويل الظواهر مايؤدي الى رفعها بزعمهم . فان قبل الاحمق ذلك منهم دخل في دين الزنادقة باطنا واستتر بالاسلام ظاهرا . وإن نفر الحالف عن اعتقاد تأويلات الباطنية الزنادقة كتمها عليهم لانه قد حلف لهم على كتمان ما أظهروه له من أسرارهم . واذا قبلها فقد حلفوه وسلخوه عن دين الاسلام وقالوا له حينئذ : ان الظاهر كالقشر والباطن كاللب واللب خير من القشر . قال عبدالقاهر :

حكى له بعض من كان دخل في دعوة الباطنية ثم وفقه الله تعالى لرشده وهداه الى حل ايمانهم انهم لما وثقوا منه بايمانه قالوا له : ان المسمين بالانبياء كنوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وكل من ادعى النبوة كانوا أصحاب نواميس ومخاريق أحبوا الزعامة على العامة فخدعوهم بنيرنجات واستعبدوهم بشرائعهم . قال هذا الحاكي لي ثم ناقض الذي كشف لي هذا السر بأن قال له : ينبغي ان تعلم ان محمد بن اسماعيل بن جعفر هو الذي نادى موسى بن عمران من الشجرة فقال له « اني أنا ربك فاخلع نعليك » قال فقلت سخنت عينك تدعوني الى الكفر برب قديم خالق للعالم ثم تدعوني مع ذلك الى الاقرار بربوبية انسان مخلوق ونزعم انه كان قبل ولادته إلها مرسلا لموسى ؟ فان كان موسى كذابا فالذي زعمت انه أرسله أكذب . فقال لي انك لا تفلح أبدا وندم على افشاء أسراره الي وتبت من بدعتهم . فهذا بيان وجه حيلهم على اتباعهم

وأما أيمانهم فان داعيهم يقول للحالف : جعلت على نفسك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسله وما أخذ الله على النبيين من عهد وميثاق انك تستر ما تسمعه مني وما تعلمه من أمري ومن امر الامام الذي هو صاحب زمانك وامر أشياعه وأتباعه في هذا البلد وفي سائر البلدان وأمر المطيعين له من الذكور والاناث فلا تظهر من ذلك قليلا ولا كثيرا ولا تظهر شيئا يدل عليه من كتابة أو اشارة إلا ما أذن لك فيه الامام صاحب الزمان أو أذن لك في اظهاره المأذون له في دعوته فتعمل في ذلك حينئذ بمقدار مايؤذن لك فيه . وقد جعلت على نفسك الوفاء بذلك وألزمته نفسك في

حاني الرضا والغضب والرغبة والرهبة قال نعم . فاذا قال نعم قال له : وجعلت على نفسك أن تحفني وجميع من أسميه لك مما تمنع منه نفسك بعهد الله تعالى وميثاقه عليك وذمته وذمة رسله وتنصحهم نصحا ظاهرا و باطنا ، وأن لا تخون الامام وأولياءه وأهل دعوته في انفسهم ولا في أموالهم . وانك لا تتأول في هذه الايمان تأويلا ولا تعتقد ما يحلها . وانك ان فعلت شيئا من ذلك فأنت بري من الله ورسله وملائكته ومن جميع ما أنزل الله تعالى في كتبه . وانك ان خالفت شيئا مما ذكرناه لك فلله عليك ان تحج الى بيته مئة حجة ماشيا نذرا واجبا ، وكل ما تملكه في الوقت الذي انت فيه صدقة على الفقراء والمساكين ، وكل مملوك يكون في ملكك يوم تخالف فيه أو بعده يكون حرا ، وكل امرأة لك الآن أو يوم مخالفتك أو تتزوجها بعد ذلك تكون طالقا منك ثلاث طلقات والله تعالى الشاهد على نيتك وعقد ضميرك فيما حلفت به . فاذا قال نعم قال له : كفى الله شهيدا بيننا و بينك

فاذا حلف الغر بهذه الايمان فلن انه لا يمكن حلها ، ولن يعلم الغر انه ليس لايمانهم عندهم مقدار ولا حرمة وانهم لا يرون فيها ولا في حلها اثما ولا كفارة ولا عارا ولا عقابا في الآخرة . وكيف يكون لليمين بالله وبكتبه ورسله عندهم حرمة وهم لا يقرون بالقديم بل لا يقرون بحدوث العالم ولا يثبتون كتابا منزلا من السماء ولا رسولا ينزل عليه الوحي من السماء . وكيف يكون لايمان المسلمين عندهم حرمة ومن دينهم أن الله الرحمن الرحيم انما هو زعيمهم الذي يدعون اليه ؟ . ومن مال منهم الى دين المجوس زعم ان الاله نور بارائه شيطان قد غلبه ونازعه في ملكه . وكيف يكون النذر الحج والعمرة عندهم مقدار وهم لا يرون للكعبة مقدارا ويسخرون بمن يحج ويعتمر ؟ . وكيف يكون للطلاق عندهم حرمة وهم يستحلون كل امرأة من غير عقد ؟ فهذا بيان الايمان عندهم

فأما حكم الايمان عند المسلمين فانا نقول : كل يمين يحلف بها الحالف ابتداء بطوع نفسه فهو على نيته وكل يمين يحلف بها عند قاض أو سلطان يحلفه ينظر فيها فان كانت يمينا في دعوى لمدع شيئا على الحالف المنكر وكان المدعي

فقالا للمدعى عليه فيمين الحالف على نيته ، وان كان المدعي محقا والمنكر ظالما المدعي فيمين المنكر على نية القاضي أو السلطان الذي أحلفه . ويكون الحالف خائنا في يمينه .

واذا صحت هذه المقدمة فالبحث عن دين الباطنية اذا قصد اظهار بدعتهم للناس أو أراد النقض عليهم معذور في يمينه ويكون يمينه على نيته . فاذا استثنى بقلبه مشيئة الله تعالى فيها لم تنعقد عليه أيمانه ولم يحنث فيها باظهاره أسرار الباطنية للناس ولم تطلق نساؤه ولا تعتق مماليكه ولا تلزمه صدقة بذلك . وليس زعيم الباطنية عند المسلمين إماما، ومن أظهر سره لم يظهر سر إمام وانما أظهر سر كافر زنديق . وقد جاء في الحديث المأثور « اذكروا الفاسق بما فيه يحذره الناس » فهذا بيان حجتهم على الاغرار بالايمان

فأما احتيالهم على الاغرار بالتشكيك فمن جهة أنهم يسألونهم عن مسائل من أحكام الشريعة يوهمونهم فيها خلاف معانيها الظاهرة . وربما سألوهم عن مسائل في المحسوسات يوهمون ان فيها علوما لا يحيط بها الا زعيمهم . فمن مسائلهم قول الداعي منهم للغر : لم صار للانسان أذنان ولسان واحد ؟ ولم صار للرجل ذكر واحد وخصيتان ؟ ولم صارت الاعصاب متصلة بالكبد والشرايين متصلة بالقلب ؟ ولم صار الانسان مخصوصا بنبات الشعر على جفنه الأعلى والأسفل وسائر الحيوان ينبت الشعر على جفنه الأعلى دون الأسفل ؟ ولم صار ثدي الانسان على صدره . وثدي البهائم على بطونها ؟ ولماذا لم يكن للفرس غدد (١) ولا كرش ولا كعب ؟ وما الفرق بين الحيوان الذي يبيض ولا يلد ولا يبيض ؟ وبماذا يميز بين السمكة النهرية والسمكة البحرية ؟ ونحو هذا كثير يوهمون ان العلم بذلك عند زعيمهم .

ومن مسائلهم في القرآن سؤالهم عن معاني حروف الهجاء في أوائل السور كقوله « الم » و« حم » و « طس » و « يس » و « طه » و « كهيعص » وربما قالوا ما معنى كل حرف من حروف الهجاء ؟ ولم صارت حروف الهجاء تسعة وعشرين حرفا ولم عجم بعضها بالنقط وخلا بعضها من النقط ؟ ولم جاز وصل بعضها بما بعدها بحرف ؟ ؟ وربما قالوا للغر : ما معنى قوله « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » ؟ ولم

(١) الغدد جمع غدة وهي كل عقدة في الجسد أطاف بها شحم ، وكل قطعة صلبة بين العصب

جعل الله أبواب الجنة ثمانية ، وأبواب النار سبعة ؟ وما معنى « عليها تسعة عشر » ؟ وما فائدة هذا العدد ؟

« وربما سألوا عن آيات وأوهموا فيها التناقض وزعموا انه لا يعرف تأويلها الا زعيمهم كقوله « فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان » مع قوله في موضع آخر « فوربك لنسألنهم أجمعين »

ومنها مسائلهم في أحكام الفقه كقولهم : لم صارت صلاة الصبح ركعتين والظهر أربعا والمغرب ثلاثا ، ولم صار في كل ركعة ركوع واحد وسجدتان ، ولم كان الوضوء على أربعة أعضاء والتيمم على عضوين ، ولم وجب الغسل من المني وهو عندا كثر المسلمين طاهر ولم يجب الغسل من البول مع نجاسته عند الجميع ، ولم أعادت الحائض ما تركت من الصيام ولم تعد ما تركت من الصلاة ، ولم كانت العقوبة في السرقة بقطع اليد وفي الزنا بالجلد ، وهلا قطع الفرج الذي به زنى في الزنا كما قطعت اليد التي بها سرق في السرقة »

فاذا سمع الغر هذه الاسئلة ورجع اليهم في تأويلها قالوا له : عليها عند إمامنا وعند المأذون في كشف أسرارنا . فاذا تقرر عند الغر أن إمامهم أو مأذونه هو العالم بتأويله اعتقد أن المراد بظواهر القرآن والسنة غير ظاهرها فأخرجوه بهذه الحيلة عن العمل بأحكام الشريعة . فاذا اعتاد ترك العبادة واستحل المحرمات كشفوا له القناع وقالوا له : لو كان لنا إله قديم غني عن كل شيء لم يكن له فائدة في ركوع العباد وسجودهم ولا في طوافهم حول بيت من حجر ولا في سعي بين جبلين . فاذا قبل منهم ذلك فقد انسلخ عن توحيد ربه وصار جاحدا له وزنديقا

قال عبدالقاهر : والكلام عليهم في مسائلهم التي يسألون عنها عند قصدهم الى تشكيك الاغمار في أصول الدين من وجهين (احدهما) ان يقال لهم : إنكم لا تخلون من أحد أمرين إما أن تقروا بحدوث العالم وتثبتوا له صانعا قديما عالما حكيما يكون له تكليف عباده ماشاء كيف شاء وإما أن تنكروا ذلك وتقولوا بقدم العالم ونفي الصانع . فان اعتقدتم قدم العالم ونفي الصانع فلا معنى لقولكم : لم فرض الله كذا ولم حرم كذا ولم خلق كذا ولم جعل كذا على مقدار كذا اذ لم تقروا بالله فرض شيئا

أوحرَّمه أو خلق شيئا أو قدره . ويصير الكلام بيننا وبينكم كالكلام بيننا وبين الدهرية في حدوث العالم وان أقررتم بحدوث العالم وتوحيد صانعه وأجزتم له تكليف عباده ماشاء من الاعمال كان جواز ذلك جوابا لكم عن قولكم : لم فرض ولم حرم كذا لاقراركم بجواز ذلك منه إن أقررتم به وبجواز تكليفه . وكذلك سؤالهم عن خاصية المحسوسات يبطل إن أقروا بصانع أحدثها وان أنكروا الصانع فلا معنى لقولهم : لم خلق الله ذلك ؟ مع انكارهم ان يكون لذلك صانع قديم .

والوجه الثاني من الكلام عليهم فيما سألوا عنه من عجائب خلق الحيوان ان يقال لهم : كيف يكون زعماء الباطنية مخصوصين بمعرفة علل ذلك وقد ذكرته الاطباء والفلاسفة في كتبهم وصنف ارسطاطاليس في طبائع الحيوان كتابا . وماذكرت الفلاسفة من هذا النوع شيئا الا مسروقا من حكماء العرب الذين كانوا قبل زمان الفلاسفة من العرب القحطانية والجرهمية والطسمية وسائر الاصناف الحميرية . وقد ذكرت العرب في أشعارها وأمثالها جميع طبائع الحيوان ولم يكن في زمانها باطني ولا زعيم للباطنية . وانما أخذ ارسطاطاليس الفرق بين مايلد وما يبيض من قول العرب في أمثالها كل شرقاء ولود وكل صكاء بيوض ، ولهذا كان الخفاش من الطير ولودا لا بيوضا لان لها اذنا شرقاء وكل ذات اذن صكاء بيوض كالحية والضب والطيور البائضة

(ثم ذكر هنا كلاما طويلا في طبائع الحيوان والنبات الذي عرفته العرب ثم ختم الكلام بقوله) :

فهذا وما جرى مجراه من خواص الحيوانات وغيرها قد عرفته العرب في جاهليتها بالتجارب من غير رجوع منها الى زعماء الباطنية . بل عرفوه قبل وجود الباطنية في الدنيا باحقاب كثيرة . وفي هذا بيان كذب الباطنية في دعواها ان زعماءها مخصصون بمعرفة أسرار الاشياء وخواصها وقد بينا خروجهم عن جميع فرق الاسلام بما فيه كفاية والحمد لله على ذلك . انتهى